جامعة البصرة
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

تمثّلات التوحيد في الجملة القرآنيّة

أ. م. د. ليث داود سلمان
جامعة البصرة - كلية الآداب – قسم اللغة العربية

٢٠١٨م

تمثّلات التوحيد في الجملة القرآنيّة

الحمد لله الذي غرس فينا الجنان ووهبنا نعمة البيان، فبعث لدينا الهمم وأنطقنا بالحكم، والصلاة والسلام على الرحمة الظاهرة والنسمة الطاهرة محمّد بن عبد الله رسول النعم، وسفير القيم، وعلى آله الطيّبين وصحبة المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

في ظلّ الحياة المدنية المشيدة، وتنامي مغريات العيش الرغيدة وانفتاح الإنسان الحديث على مصادر الثقافة المتعدّدة، ووقوفه على سبل المعرفة المتنوّعة التي ينتجها رجل الحضارة اليوم في أوربا والعالم الغربي، وما رافق ذلك من فتور الجانب العقدي وبروز اتّجاهات دينية متطرّفة تقارب الواقع الموضوعي وتستنطق مفرداته في ضوء زاوية تأريخية مؤطّرة بالزمان والمكان، وبنية معرفيّة تستجيب لبواعث خارجيّة آنية قد مضت عليها أعوام مديدة، فلا هي عاينت الواقع في قراءاتها الدينية، ولا أفادت من القواعد الكليّة في صياغة منهجية دينية تزاوج بين التراث والمعاصرة، فكانت ردة الفعل شديدة لدى أبنائنا وبناتنا، فاستجابوا للغة الانفتاح، وانصهروا لمنهجية التجديد المنفلتة من قيود الإرث الحضاري العتيق، وابتعدوا عن مقومات الدين الإسلامي الحصيف، فاعتنقوا دين الحياة بثوبها القشيب، وركبوا أمواج الانفتاح بزيها العجيب، فتراجع الدين من فاعليته البليغة وحجّته السنيعة، وأصبحنا مدافعين نلتمس الحجج لردع الشبهات ودفع المضلّات بعد أن كنّا نبني للأمم مسار المعرفة، ونضع لهم أطر الثقافة، ونصحِّح لديهم أود القيم، منتجين لا مستهلكين، فتوحاتنا العلمية قد بلغت الخافقين.

إنّ بناء المعرفة اليوم يُختِّم علينا استحضار الجانب العقدي من المنظومة الدينيّة، وتدعيم فكرة التوحيد التي تمثِّل منبع الحياة وجوهر الإنسانية، وعماد التعايش، ومن هذا المنطلق ابتغيت البحث عن مسالك فكرة التوحيد ومراتب ظهورها في الجملة القرآنيّة، وقبل البدء يجدر بي أن أقف عند مفهوم الجملة؛ لأنّه يمثّل المُظهِر اللفظي للتوحيد في عالم العين والخارج.

الجملة من المفاهيم التي وُجد لها حضور عند العلماء، فكان نصيبها من البحث يدور حول حدِّها وأقسامها وعناصرها ووظائفها ومجالاتها الدلاليّة، والعوارض التي تلحقها من التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، وغيرها. وهنا لا بدّ لنا من الوقوف على حدّها ليكون أصلاً في بيان تجلّيات التوحيد ومراتب ظهوره. وقد كانت المنطلقات في تحديد الجملة تقوم على ما يأتي:

١- المعنى (الفائدة والاستقلال)، وعلى هذا المنطلق يشرع ابن جني في بيان معنى الجملة من خلال حديثه عن الكلام، إذ يقول: (أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه. وهو الذي يسميه النحويين الجمل، نحو زيد أخوك، وقام محمد وضرب سعيد، وفي الدار أبوك، وصه، ومه، ورويد، وحاء وعاء في الأصوات، وحسِّ، ولبِّ، وأفّ، وأوَّه، فكل لفظ استقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام.)[١]، وهو هنا يجعل العلاقة بين الجملة والكلام

علاقة تساوٍ، مؤداهما واحد في الدلالة من حيث الاستقلال والفائدة، ولا يشترط في الجملة التركيب كما نجده في تمثيله ب(أفّ وأوّه). وقريب من هذا ما نجده عند ابن يعيش إذ يقول: (اعلم أنّ الكلام عند النحويين عبارة عن كلّ لفظ مستقلٍّ بنفسه مفيد لمعناه ويسمّى الجملة)[٢]، وقد نقل المرادي عن ابن طلحة أنّ الكلمة الواحدة وجوداً أو تقديراً قد تكون كلاماً، إذا قامت مقام الكلام كنعم ولا في الجواب[٣]، وممن سلك هذا الاتّجاه من المحدثين العرب الدكتور إبراهيم أنيس، إذ يقول : (إنّ الجملة في أقصر صورها هي أقلّ قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه، سواء تركّب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر)[٤]، وفندريس من غير العرب، وهو القائل : (وبعض الجمل مكوّنة من كلمة واحدة : "تعال" و"لا" و"وأسفاه" و"صه!" ؛ كل واحدة من هذه الكلمات تؤدي معنى كاملاً يكتفي بنفسه) [٥].

٢- الشكل، وهو النظر إلى الجملة من زاوية الإسناد الذي يقع بين طرفين : مسند ومسند إليه، وهذا المنطلق نجد صداه عند سيبويه عندما قال : (وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بداً.فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه.وهو قولك عبد الله أخوك وهذا أخوك.ومثل ذلك يذهب عبد الله فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء.ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقاً وليت زيداً منطلق لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده.)[٦]، ثمّ أخذت هذه الفكرة سبيلها عند الرضي، فجعل المعيار في الجملة هو فكرة الإسناد، سواء تضمّن الفائدة أم لا، وفي ذلك يقول: (والفرق بين الجملة والكلام، أن الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي سواء كانت مقصودة لذاتها أو، لا، كالجملة التي هي خبر المبتدأ وسائر ما ذكر من الجمل، فيخرج المصدر، وأسماء الفاعل والمفعول والصفة المشبهة والظرف مع ما أسندت إليه. والكلام ما تضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته، فكل كلام جملة ولا ينعكس.)[٧]، فالإسناد الذي يتضمن الفائدة هو الكلام، والذي لا تشترط فيه الفائدة يمثّل الجملة، وهذا المعنى نجده عند ابن هشام، فقد جعل الجملة أعمّ من الكلام إذ يقول: (والجملة عبارة عن الفعل وفاعله كـ"قام زيد" والمبتدأ وخبره ك"زيد قائم" وما كان بمنزلة أحدهما نحو "ضُرِب اللص" و "أقائم الزيدان" و "كان زيد قائماً" و "ظننته قائماً". وبهذا يظهر لك أنهما ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصّل، فإنّه بعد أن فرغ من حدّ الكلام قال: ويسمّى جملة، والصواب أنّها أعمّ، إذ شرطه الإفادة، بخلافها، ولهذا تسمعهم يقولون : جملة الشرط، وجملة الجواب، وجملة الصلة، وكلّ ذلك ليس مفيداً، فليس بكلام)[٨]، وفي كلام لابن مالك يفهم منه عموم الجملة، إذ يقول، وهو يتحدّث عن حدّ الكلام : (الكلامُ ما تَضَمن من الكَلِم إسنادا مُفيدًا مَقْصُودًا لذاته... واحترز بأن قيل "مقصود لذاته" من المقصود لغيره كإسناد الجملة الموصول بها والمضاف إليها، فإنه إسناد لم يقصد هو ولا ما تضمنه لذاته بل قصد لغيره، فليس كلاما بل هو جزء كلام، وذلك نحو: قاموا، من قولك: رأيت الذين قاموا، وقمت حين قاموا.)[٩]، وإلى هذا ذهب

الشريف الجرجاني بقوله: (الجملة عبارة عن مركّب من كلمتين أسندت أحداهما إلى الأخرى، سواء أفاد كقوله: زيد قائم، أو لم يفد كقولك : إن يكرمني، فإنّه جملة لا تفيد إلّا بعد مجيء جوابه، فتكون الجملة أعمّ من الكلام مطلقاً)[١٠]. وهذا الكلام نجده عند الأبّذي[١١]، والفاكهي [١٢]، وعلى المسلك نفسه نجد كلام أبي البقاء الكفوي [١٣].

إن الشكل والتركيب الخارجي الذي يقدّمه الإسناد بين الطرفين هو المعيار، وهذا التركيب والائتلاف بين الطرفين قد ينطوي على الفائدة، وقد تكون الفائدة معه غير تامة.

٣- الشكل والمضمون ففي الشكل ثمّة عناصر مركّبة، وفي المضمون تحصل الفائدة، وهذا نجده عند أبي علي الفارسي وهو يتحدّث عن ائتلاف الألفاظ الثلاثة، قائلاً: (هذا باب ما ائتلف من هذه الألفاظ الثلاثة كان كلاماً مستقلاً وهو الذي يسميه أهل العربية الجمل

اعلم أنّ الاسم يأتلف مع الاسم يكون منهما كلام، وذلك نحو: زيد أخوك. وعمرو ذاهب. والفعل مع الاسم: (نحو) قام زيد. وذهب عمرو. ويدخل الحرف على كل واحد من هاتين الجملتين، فيكون كلامًا. وذلك نحو: هل زيد أخوك؟ وإنّ زيداً أخوك. وما عمرو منطلقًا. وكذلك يدخل الحرف على الفعل والاسم. كما دخل على الجملة المركبة من الاسمين، وذلك نحو: قام زيد. ويذهب عمرو. ولم يضرب زيد.)[١٤]، فالائتلاف المتقدّم الذي يمثّل له أبو علي يحسن السكوت عليه، وبه تتحقق الفائدة، وعلى المنوال نفسه نجد الرماني يقول: (الجملة هي المبنيّة من موضوع ومحمول للفائدة)[١٥]، والفائدة في الإسناد مفهومة من تمثيل الزمخشري بقوله: (الكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى. وذاك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك: زيد أخوك، وبشر صاحبك. أو في فعل واسم نحو قولك: ضرب زيد، وانطلق بكر. وتسمى الجملة.)[١٦]، والكلام والجملة بينهما ترادف من هذه الجهة، وقد تبنّى هذا النظر الكثير من العلماء منهم : ابن الخشاب[١٧]، والخوارزمي[١٨]، وابن يعيش[١٩]، وابن فلاح اليمني [٢٠]، وبدر الدين الميلاني[٢١]، والكافيجي[٢٢]، وناظر الجيش[٢٣]، وفي هذا النحو من التوجيه نظفر بنسبة إسناديّة وفائدة يحسن السكوت عليها، والجملتان الفعلية والاسمية هما المظهران التامّان للكلام المفيد.

٤- المدلول التركيبي، وهو رأي الأصوليين، يقول مصطفى جمال الدين : (وأمّا الجملة فلأنّ سرّ تسميتها "جملة" ليست فائدتها التامّة، بل "مدلولها التركيبي" بحيث يكون لكلماتها المفردة معناها المعجمي الخاص، ولهيئتها التركيبية القائمة بهذه الكلمات معناها النحوي الخاصّ الزائد على معاني المفردات. ولا شكّ أنّ هذا المعنى التركيبي الزائد يحصل من تركيب لا يحسن السكوت عليه كهيئة "القطار قادم" كما يحصل من تركيب لا يحسن السكوت عليه كهيئة "القطار القادم" فإنّ في كل منهما "معنى زائداً" على معنى القطار ومعنى القدوم هو : نسبة القدوم إلى القطار وربطه به، إلّا أنّ هذا المعنى في الهيئة الأولى تامّ وفي الثانية ناقص)[٢٤]، وهذا المدلول التركيبي جعلهم يقسّمون الجملة على تامّة وناقصة، وبعضهم كان يطلق التامة على جملة الشرط وجملة الجواب وجملة الصلة وإن

لم يصح السكوت عليها، والناقصة مصطلح ينال النسبة الناقصة كجملة الإضافة وجملة الوصف [٢٥].

وقد تطور المفهوم التصوري للجملة باعتبار الشكل عند ابن هشام الذي قسّم الجملة على كبرى وهي الجملة الاسمية التي خبرها جملة، نحو: زيد قام أبوه، وصغرى وهي الجملة المخبر بها "قام أبوه"[٢٦]، وقد رافق هذا التوسع في بسط مؤدّى المفهوم المقصد المعنوي والتشخيص الدلالي الذي يرافق التركيب في إيجاد ما يحسن السكوت عليه، لدى المتلقي، ولاسيما في التراكيب التي لا يمكن السكوت عليها إلّا بالتتميم وتحرير المراد المعنوي، وهنا يكون الشكل قاصراً عن إيصال المراد، وأكثر ما يكون هذا في ذكر المتعلقات والقيود كما في قوله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) الأنبياء ١٦. فوجود الحال في التركيب قيد يتجلى به المعنى العقدي والمراد التوحيدي بعيداً عن اللهو والباطل، وقد كان لهذا النظر دور مهم في ظهور قراءات أخرى للجملة تأخذ على عاتقها الفائدة التامة في بيان المقاصد، والصور التركيبية التي تظهر بها، كما نجدها عند محمد المبارك الذي أخذ بتفصيل المفهوم والأنماط، فقال : (في القرآن أنواع كثيرة من التراكيب تندرج من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على أبسط عناصرها إلى الجملة المركّبة الطويلة المؤلّفة من عناصر متعددة بينها ترابط وتشابك)[٢٧]، ومن صور هذه الجمل عنده :

- الجملة البسيطة القصيرة وقد مثّل لها بقوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى) النجم ٤٣- ٥٠.
- الجملة البسيطة الطويلة، وهذا النوع من الجمل يتألف من من جمل قصيرة بسيطة متّصلة مع بعضها بالعطف أو التعليل وغيرها، ومثالها قول تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) هود ٢٥- ٢٦، ومنها قوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) النور ٣٥.
- الجملة الطويلة المسلسلة : وهي الجملة التي تتصل أجزاؤها اتّصالاً وثيقاً لا يمكن فصلها وتقطيعها، ومنها قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ

فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) البقرة٢٨٢.

- الجملة الطويلة المركّبة: وهي الجمل التي تكون متشابكة العناصر لا ينفصل أوّلها عن آخرها، ولا يفهم معناها ألّا إذا قرئت جملة واحدة، ومثالها : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) البقرة ٢٨١٦٤.

وقد نظر الدكتور محمد أبو موسى إلى الجملة من جهة أحوالها في التركيب طولاً وقصراً في ضوء ترابطها الداخلي ومتمماتها المعنوية، إذ يقول: (فهناك الجمل الصغيرة المختصرة، المكوّنة من مفردات، وهناك الجمل التي تطول إلى حدّ ما، بسبب كثرة تعلقاتها، وهناك جمل تطول أكثر ؛ لأنّها تتكون من جمل، وقد تتكاثر الجمل الداخلة في تكوين الجملة، كأن تقع جملة خبراً وفيها فاعل أو مفعول، أو جار ومجرور، ثم يوصف هذا المفرد بجملة يقع فيها حال، أو استثناء، أو شرط، وقد تعطف على هذه أو تلك جملة أو جملتان، وقد يتولد من أحدها ما يستتبع استثناء، أو شرطاً، وهكذا تمتد بعض الفروع، وتطول، وجمل الشرط مثال واضح في هذا الذي نقوله، فقد تترادف جمل معطوفة على جملة الشرط ثم يأتي جملة الجواب وقد تكاثرت على عاتقها هي الأخرى جملة من الجمل...)[٢٩]، وقد تحدّث الدكتور محمود أحمد نحله عن التركيب المتعدِّد في الجملة، فقال : (والجملة المركّبة تركيباً متعدِّداً تتكون من أكثر من جملتين، وتتلقاها الأذن مسموعة أو العين مقروءة بما هي وحدة واحدة، وإن كانت ذات أجزاء... وكلاهما منظور فيه إلى أخصّ خصائصها وهو التعدّد أو تعاقب الأجزاء. والتعدّد في الجملة المركّبة إمّا أن تكون بتكرار الرابط، وإمّا أن يكون بتكرار التفريع وإمّا أن يكون بهما معاً. على أن للجمل في التفريع درجات، فإذا تفرعت جملة عن جملة أصليّة مباشرة كانت فرعيّة من الدرجة الأولى، وإذا تفرعت عن جملة فرعيّة من الدرجة الأولى كانت فرعيّة من الدرجة الثانية، وإذا تفرعت عن جملة فرعيّة من الدرجة الثانية كانت فرعيّة من الدرجة الثالثة، وهلم جرّا. والجملة بهذا التعدّد تتسع وتتعقّد أحياناً لكنّها تظلّ صحيحة من الوجهة النحوية)[٣٠].

وعلى المنوال نفسه نجد الدكتور عبد الواحد زيارة، فقد تحدّث عن أقسام الجملة القرآنيّة، ولم يزد عليه شيئاً على ما ذكره محمّد المبارك سوى تغيير بعض المصاديق، فقال : (في القرآن

الكريم أنماط كثيرة من الجمل، تبدأ من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على العناصر البسيطة المكوّنة لها، كالفعل والفاعل والمفعول، والمبتدأ والخبر إلى الجملة المركّبة الطويلة المؤلّفة من عناصر متعدّدة بينهما ترابط وتشانك، لا تقبل الأجزاء المكوّنة لها الانفكاك والانفصال)[٣١]، وكانت تقسيماته للجملة أيضاً على النحو الآتي :

- الجملة البسيطة القصيرة، ومثالها: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر) الكوثر١-٢.
- الجمل البسيطة الطويلة، ومثالها: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل ١٤.
- الجمل الطويلة المسلسلة، ومثالها : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج ٥.
- الجمل الطويلة المركّبة، ومثالها: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) البقرة ١٦٤.[٣٢].

وفي ضوء هذا المنحى سيكون التعاطي مع المقاصد الإلهيّة وتجليات ظهورها في الجملة القرآنيّة، ولا أحسب أنّنا نتعامل مع عناصر مفردة مستقلّة في عملية التواصل ؛ لأنّ المعنى القرآني يبني جسوره على أساس جملة من الروابط المعنوية التي يمسكها سياق واحد، وهذه بدورها تتكئ على هرم من المفردات المنشئة للمفاهيم والموضوعات الجزئية، وبتأمل المفردات القرآنيّة وهي تترابط فيما بينها، ندرك حقيقة المعنى القرآني الممتدّ الذي يبني نسيج النصّ ويؤلّف وحدته الموضوعية، وكلّما وقعت أوهامنا على غاياته وجمعنا بين موضوعاته وجدنا ذلك الشعاع البهيّ الذي يجعل التواصل قائماً على أساس الهداية والحقّ (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) إبراهيم ١. وسأقتصر على معاينة المعنى القرآني من لبّ المبادئ وأسّ العقائد، ذلك هو التوحيد، مع مراعاة أشكال الظهور اللفظي ومراتبه المعنوية، فمن المقطوع به أنّ المعنى الجملي وإن كان واحداً، إلّا أنّه متفاوت في الدرجات، ومتباين في اللطائف، والسياقات القرآنية محيطها الكاشف.

التوحيد: مأخوذ من وحّد بمعنى جعله واحداً، وتوحّد بقي وحده، وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له[٣٣]، وقال الشريف الجرجاني: (التوحيد في اللغة : الحكم بأنّ الشيء واحد، والعلم بأنّه

واحد، وفي اصطلاح أهل الحقيقة : تجرّد الذات الإلهيّة عن كلّ ما يتصور في الأفهام، ويتخيّل في الأوهام والأذهان)[٣٤]. وللتوحيد تجليات في الجملة القرآنية مرّة يُراعى فيها جانب الذات، وأخرى يُنظر إليها من جهة الموحِّد، ففي جانب الذات نجد أنّها واحدية أحدية، وتجلياتها تكون على مراتب: التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي والتوحيد الأفعالي، فذات الله واحدة، وصفات الكمال له دون سواه، وكمال التدبير منحصر فيه، قال أبو البقاء: (وَاعْلَم أَن للتوحيد ثَلَاث مَرَاتِب:

مرتبَة تَوْحِيد الذَّات وَهُوَ مقَام الاسْتِهْلَاك والفناء فِي الله فَلَا مَوْجُود [فِي الْحَقِيقَة] إِلَّا الله. ومرتبة تَوْحِيد الصِّفَات وَهُوَ أَن يرى كل قدرَة مُتَفَرِّقَة فِي قدرته الشاملة وكل علم مضمحلاً فِي علمه الْكَامِل بل يرى كل كَمَال لمْعَة من عكوس أنوار كَمَاله.

ومرتبة تَوْحِيد الْأَفْعَال وَهُوَ أَن يتَحَقَّق وَيعلم بِعلم الْيَقِين، أَو بِعَين الْيَقِين، أَو بِحَق الْيَقِين أَن لَا مُؤثر فِي الْوُجُود إِلَّا الله)[٣٥]، ومنشأ التوحيد هذا قد يكون ناشئاً من الفطرة السليمة ونقاء السريرة، وقد يتبلور من النظر في آيات الكون وحقائق الوجود، والتدبّر في عظيم نفعها وبديع صنعها، وقد نفيد من دليل الإمكان والحدوث، وكل هذه المعاني الدقيقة في التوحيد نجد لها حضوراً في الجملة القرآنية، ولكن ليست على مسافة واحدة من اللطافة والبيان والوضوح، على النحو الآتي:

- قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) العنكبوت ٦١.
:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) العنكبوت ٦٣.
:(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) لقمان ٢٥.
:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...) الزمر ٣٨.
:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) الزخرف ٩
:(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ) الزخرف ٨٧.

المطلب الذي تتعرض له هذه الجمل القرآنية يحكي أمراً عقدياً يمس حياة الإنسان العملية ويعكس تصورات البشر العقدية، إزاء الكون والوجود، وقد بُنيت عناصرها من وحدات لفظية مستمدّة مما يُلامس حياتهم من الأنس بظواهر الطبيعة والانفعال بالمحيط الجغرافي والواقع المحسوس، فالسماء والأرض لديهم من مقومات الحياة المتقابلة، تمدّهم السماء بالمطر، وتجود عليهم الأرض بالخضر، والشمس والقمر يؤلّفان لديهم ثنائية الحركة والسكون، وإلى جانب هذا التصور المحسوس ثمّة إدراك فطريّ ومعرفة غريزية يجدها الإنسان، من تقلبات هذه الظواهر وتناوبها، مركوزة في لبّه، سارية في وجدانه، تلك هي حقيقة التوحيد في مقام الفعل والتقدير والتدبير. ولو تأمّلنا النسيج اللغوي الرابط لمفرداتها، لوجدنا ظهور الجملة على طريقة الحوار والخطاب، يبدأ الطرح بفعل السؤال ويختتم بفعل جواب القول تعييناً، وقد أطّرت هذه الجملة بقيد

شرطي كاشفٍ عن تمام التعلق والارتباط بين المقدّم والتالي، وجُعلت خاصية القسم المضمر في التركيب دلالة كاشفة عن البعد العيني والتحقق الواقعي الكامن في الجواب، وهو صاحب الخلق والإنزال، المتمثل جواباً للقول. وفي إيثار فعل القول المضارع المؤكّد بالنون الثقيلة دلالة على أن الحدث موثّق عندهم، لا يقبل التزلزل والتنكّر.

إذا هذا الظهور الجملي أسفر عن سطوع الفطرة الأزليّة الكامنة في طبيعة الإنسان البعيدة من لوث العوارض وسلطة المؤثّرات، فالإنسان من حيث لبنته الروحية المجرّدة لطيفة بيضاء تتجلى فيها حقيقة التوحيد الناصعة، وهو الأصل الذي ينظر إليه الحوار في اشتراطه الموضوعي وشقّه القسمي، وقد يُسدل الستار على هذا الوجود الظلّي برين التكبّر والأنانية، فتغدو النفس في متاهة الضلال وغمر الظلام، تتخذ الرفض والجحود سبيلا للتمرّد، وتمسك بعصا الحجاج للعناد واللجاج. ولكننا بالنظر إلى سياق الجمل تعنّ أمامنا نكتة ظريفة، وهي أن الجهة المسؤولة في المقام لم تكن على الطريقة المثلى، وليست على سنخ الموحّدين، يقول الطاهر بن عاشور: (هذا الكلام عائد إلى قوله : والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون تعجيبا من نقائض كفرهم، أي هم كفروا بالله وإن سألهم سائل عمن خلق السماوات والأرض يعترفوا بأن الله هو خالق ذلك، ولا يثبتون لأصنامهم شيئا من الخلق، فكيف يلتقي هذا مع ادعائهم الإلهية لأصنامهم، ولذلك قال الله فأنى يؤفكون أي كيف يصرفون عن توحيد الله وعن إبطال إشراكهم به ما لا يخلق شيئا. وهذا الإلزام مبني على أنهم لا يستطيعون إذا سئلوا إلا الاعتراف؛ لأنه كذلك في الواقع ؛ ولأن القرآن يتلى عليهم كلما نزل منه شيء يتعلق بهم، ويتلوه المسلمون على مسامعهم، فلو استطاعوا إنكار ما نسب إليهم لصدعوا به. وضمير جمع الغائبين عائد إلى الذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله واستعجلوا بالعذاب ؛ بقرينة قوله : فأنى يؤفكون.)[٣٦]، وفي الميزان تأكيد على ذلك أيضاً، إذ يقول : (والآيات تذكر مناقضات في آراء المشركين فيما ألقي في الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به فإنهم يعترفون أن خالق السماوات و الأرض و مدبر الشمس و القمر - و عليهما مدار الأرزاق - هو الله و أن منزل الماء من السماء و محيي الأرض بعد موتها هو الله سبحانه ثم يدعون غيره ليرزقهم و هم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره و يقيمون في حرم آمن و هو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل و يجحدون الحق و يكفرون بنعمة الله.)[٣٧].

وقد جاءت الفكرة بهذا التمثّل الأسلوبي لتدل على أمور منها:

١- إنّ الحقائق الوجوديّة ثابتة ومشخّصة في الوجود الخارجي، ولا تقبل التبدّل والتغيير بأفول المكان وتصرّم الزمان، لأنّها تؤلّف جزءاً من نفحة الفرد وهويته الباطنية، والفطرة الإنسانية من أنصع الحقائق في البعد الإنساني المجرّد، خلافاً لمقومات بعده المندثر الزائل مع مقتضيات الطبيعة الماديّة، فالتوحيد إذاً من سنخ ذلك الموجود الخالد.

٢- إن ميدان الإنسان وكماله مرهون بتلك الحيثيّة المجرّدة التي تعاين الأشياء من بعدها الفطري وحيثيتها التوحيدية، لذلك نجد كل القرارات العفوية النابعة من الإنسان لا

تتجاوز تلك الانطباعات الأوّلية التي ولدت مع كينونته ورافقت مسيرته، ومقول القول في الجمل القرآنية المتقدّمة يكشف عن هذه المزيّة.

٣- إن الحركة الجوهرية للإنسان تكون في أطوارها وتشخّصاتها بخط مستقيم، وامتداد ثابت، تُمليها السنن الكونيّة وتقرّها الأنظمة الإلهيّة (العناية الربّانيّة)، ولكنها تنخرم وتنفصم بدافعين : الأوّل صيرورة الإنسان في توجّهه المدني وتواصله الاجتماعي الذي من شأنه بحكم، نشأة التكوين ودار التزاحم والتدافع، أن يُوجد البواعث إلى الاختلاف والتخالف عند غياب دور العقل ورقابة التشريع. والثاني حُبّ النفس والعمل على تفعيل أنانيته، وهو قائد يُبعد البشر عن مسارهم وتوازنهم، فتميل كفّة المنافع والمصالح، وترجح الممارسات الفردية، ومن ثم تُخترم بيضة المجتمع إن لم تُعالج بسمو النفس واعتدال مزاجها.

- قال تعالى:(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا(٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا(٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا(٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا(٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا(١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا(١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا(١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا(١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا(١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) النبأ ٦- ١٦.

: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا(٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى(٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى(٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى(٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى(٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى(٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى(٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى) النجم ٤٤-٥٤.

: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ(١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) النحل ١٠- ١٦

:(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ(١٦)) المؤمنون ١٢-١٦.

عملية التواصل الكبرى في عالم الإمكان تقوم على أساس التعرّف على الذات وقبول الآخر،

ومن ثم يكون إنتاج الوعي بإقامة الدليل وبلوغ مرتبة الإقناع فرعاً في الفعل والانفعال، وفي القرآن الكريم ثمّة لسان تتواصل به الممكنات جميعها لبلوغ غاياتها المنشودة، ونيل مآربها المقصودة، يجمعها وعاء الفقر وظرف الحاجة، ويوحّدها مبدأ السير والحركة الجوهرية في طريق الكمال الذي زُوِّد به برنامجها العملي، وهذا كاشف، بخيط شفيف وظلّ لطيف، عن وجود حلقات من الارتباط والترابط بين ذوات الموجودات تحكي عن علّة منظّمة وقدرة منضّدة وفعل بديع تامّ، بعيد من الاعتباط والمصادفة، وهذا في كتاب الله، له مصاديق عديدة انتقينا منها الآيات المتقدّمة ؛ لتكون شواخص حجاجية وثوابت برهانية على تمثّل فكرة التوحيد في عالم العين والخارج.

في الجملة الطويلة الأولى نظفر بوظيفة عقدية ومعطى توحيدي،ففقراتها بدأت بفعل الإنتاج (جعل وبنى وأنزل وأخرج)، وهو فعل مترشح من فاعل مؤثّر، تتبين منزلته ويتضح مقامه من المفاعيل المتعدّدة والمتنوعة المتحرر منه (الأرض مهادا، والحبال أوتادا، سبعاً شدادا...)، والحرف الرابط بين فواصله يؤذن بوجود الفعل الربوبي المدبّر، فهو الذي جمع بين هذه الحيثيات وألّف بين مخرجاتها، وكأن التفصيل والتكثير في هوية هذه العمل بفعله ومفعوله في عين الوحدة ؛ فالتدبير واحد تام، والتكثير في صوره ومظاهرة.

إنّ هذه الفقرات، وإن كانت تامّة المغزى واضحة المرمى تبقى غير مستقلّة من جهة أخرى لتوقّف دليل النظام الذي يتعرّف لدينا من ذلك الترابط المحسوس في مفردات الطبيعة وعناصر الخلقة ؛ الواقعة من محيط الإنسان موقع الأنس والألفة، وهنا كانت المفاعيل المتقدّمة مظاهر عينيّة لتجلي دليل النظام الكوني الكاشف عن توحيد الخالق وعظمة فعله، ولهذا النسق العجيب ظهور في إثبات المعاد علاوة على ما فيها من دليل كاشف عن النسق العجيب في الخلق والتنظيم، وقد ذكر الطباطبائي أثر هذه الآيات في إتمام الحجة وبلوغ اليقين : (أن العالم المشهود بأرضه وسمائه وليله ونهاره والبشر المتناسلين والنظام الجاري فيها والتدبير المتقن الدقيق لأمورها من المحال أن يكون لعبا باطلا لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضروري أن يستعقب هذا النظام المتحول المتغير الدائر إلى عالم ذي نظام ثابت باق، وأن يظهر فيه أثر الصلاح الذي تدعو إليه الفطرة الانسانية والفساد الذي ترتدع عنه، ولم يظهر في هذا العالم المشهود أعني سعادة المتقين وشقاء المفسدين، ومن المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزية أو ردعا غريزيا بالنسبة إلى ما لا أثر له في الخارج ولا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الانسان ويجزى فيه على عمله إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا. فالآيات في معنى قوله تعالى " وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار " ص: ٢٨.

وبهذا البيان يثبت أن هناك يوما يلقاه الانسان ويجزى فيه بما عمل إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشك فيه بعضهم ويستبعده طائفة، ويحيله قوم، ولا يؤمن به مع العلم به عنادا آخرون، فاليوم ضروري الوقوع والجزاء لا ريب فيه. ويظهر من بعضهم أن

الآيات مسوقة لإثبات القدرة وأن العود يماثل البدء والقادر على الابداء قادر على الإعادة، وهذه الحجة وإن كانت تامة وقد وقعت في كلامه تعالى لكنها حجة على الامكان دون الوقوع والسياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الامكان فالأنسب في تقريرها ما تقدم.)[٣٨]، وكان لسيد قطب كلام جميل في ذيل هذه الجمل القصيرة المتوالية، إذ يقول : (وهذا التناسق في تصميم الكون، لا يكون إلا ووراءه يد تنسقه، وحكمة تقدره، وإرادة تدبره. يدرك هذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توجه مشاعره هذا التوجيه، فإذا ارتقى في العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب. وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولاً تافهاً لا يستحق المناقشة. كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير في هذا الكون، مجرد تعنت لا يستحق الاحترام! إن لهذا الكون خالقاً، وإن وراء هذا الكون تدبيراً وتقديراً وتنسيقاً. وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذا النص القرآني على هذا النحو: من جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً. وخلق الناس أزواجاً. وجعل نومهم سباتاً (بعد الحركة والوعي والنشاط) مع جعل الليل لباساً للستر والانزواء، وجعل النهار معاشاً للوعي والنشاط. ثم بناء السبع الشداد. وجعل السراج الوهاج. وإنزال الماء الثجاج من المعصرات. لإنبات الحب والنبات والجنات.. توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحي بالتناسق الدقيق، ويشي بالتدبير والتقدير، ويشعر بالخالق الحكيم القدير.)[٣٩].

وفي الجملة الطويلة الثانية نجد الفقرات تتألف من فواصل قرآنية قصيرة، وهذه الفقرات بُني سلكها الرابط من مفردات فعليّة تتعلّق بشأنه البشري، وعوارضه الوجودية وما بها تتوسل إلى مآربها، وقد سُبقت بأداة توكيد بليغة مقرونة بضمير الشأن الموثّق بعنصر الغيبة (هو) الذي يحيل على النسبة التامّة المنحصر بفاعل بديع قدير قد جمع بتدبيره المؤتلفات والمفترقات (أضحك وأبكى، أمات وأحيا، الذكر والأنثى، أغنى وأقنى)، ليدل على أن هذا الوجود يجري بنظام محكم ويسير بنسق قويم، له سنن صارمة لا تقبل التخلف والأفول، يقول الطباطبائي موضحا هذا الشأن الربوبي: (السياق في جميع هذه الآيات سياق الحصر، وتفيد انحصار الربوبية فيه تعالى وانتفاء الشريك، ولا ينافي ما في هذه الموارد من الحصر توسط أسباب أخر طبيعية أو غير طبيعية فيها كتوسط السرور والحزن وأعضاء الضحك والبكاء من الانسان في تحقق الضحك والبكاء، وكذا توسط الأسباب المناسبة الطبيعية وغير الطبيعية في الاحياء والإماتة وخلق الزوجين والغنى والقنى وإهلاك الأمم الهالكة وذلك أنها لما كانت مسخرة لأمر الله غير مستقلة في نفسها ولا منقطعة عما فوقها كانت وجوداتها وآثار وجوداتها وما يترتب عليها لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد.)[٤٠]، وبتأمل دقيق ندرك ذلك النظام العجيب والنسق الرتيب، الذي أودعه الله في هذه النشأة، فالطبيعة الإنسانية تظهر بوجودين ذكري وأنثوي، وفيها الضحك وما يرافقه من الفرح والبكاء وما ينطوي عليه من الهمّ والغمّ والحزن، ولها نعمة الوجود ويلحقها الممات، وتبرز فيها صفتا الفقر والغنى، وهي محل للنعم وميدان تطرو عليها النقم... وهي أدلّ

على قدرة الله وعظيم تدبيره ؛ لأنّها متعلقات فعله، وموارد إرادته، وثمّة ملمح أسلوبي ندركه من استعمال همزة التعدية مع أفعال هذه الجمل القصيرة، لكي تنقل طبيعة الفعل من خاصيته اللازمة التي تعطي دلالة الحدث المشخص في نسبته إلى الفاعل فقط إلى خاصية الوقوع التي تجعل الفعل منقاداً لإرادة قاهرة عليا، وفي هذا التعبير طاقة دلالية كاشفة عن الجهة المسؤولة عن تمرير الأفعال وإنشاء عرش الأوامر، وإجراء مقاديرها، وأيّ موجود له شؤون الوجود وتدبيرها غير الواحد الأحد.

وفي الجملة الطويلة الثالثة نظفر بوظيفة عقدية كاشفة عن ترابط مفردات عالم الإمكان فيما بيها، فالسماء المحملة بالغيث تجود بوافر فيضها لتسقي حياة طيبة، تغدو معها الأرض ندية بالخضر ثرية بالثمر حيث النخيل والأعناب والزيتون. والبحر آية الجمال بحليه وينبوع الحياة بغذائه، والجبال أعمدة الأرض وأركانها، والشمس والقمر عوامل بعث للحركة وتدفق العطاء، والنجوم أمارات وأدلّة نعرف بها مسارات السعي، وجهات الصراط. إن هذه العناصر المترابطة في التركيب تمثل لبّ الحياة وسرّ جمالها، فهي بتآلفها تكشف عن ذلك البعد الجوهري المرتب الذي لا تفاوت في فطره وإنشائه. والبعد الربوبي في هذه الفقرات ظاهر في التركيز على البنيات المشخّصة من عناصر الطبيعة وما يقترن بها، يقول سيد قطب في معرض حديثه عن عقيدة التوحيد والشأن الربوبي في السورة : (فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل.. هو السماوات والأرض. والماء الهاطل والشجر النامي. والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار. وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها...)[٤١]، إن هذه النعم التي تحيط الوجود الإنساني تُعقد حلقاتها بنسيج التدبير وتتصل سلاسلها بوحدة التسخير والتذليل، فهي من أتمّ الدلائل الكاشفة عن القصدية في الفعل والغائية في التنظيم. ومن يتأمل بعين العقل يدرك أن المظاهر المتقدمة للوجود لا يمكن أن تكون شواخص فارغة من المضمون، وجدت بلا هدف، وهي تمضي إلى غير غاية، فنسقيتها لسان ناطق، وسرّ ترابطها دليل سامق.

والجملة الأخيرة لها نسق بنائي عجيب، إذ بُنيت فقراتها وترابط مفرداتها على نحو هرمي، يبدأ من التصوير المادي والتشكيل الطيني لينتهي بالنموذج الكامل الذي يقترن فيه الملك والملكوت. أظهرت هذه الجملة الطويلة مراحل خلق الإنسان، مفصلاً في أطوار وجوده ومراتب ظهوره، حتى إذا استوى في عالم الأجنّة، بعث الله له لطيفة الوجود الظِلّيّ الذي له قابلية التخلق والتحقق بأسماء مبدعه وموجده. وبحسب منطق جمل المشهد التكويني الذي يحكي العالم العيني المصغّر، تقترن الفقرات ولا يمكن فصلها أو تفكيكها ؛ لأنّ الاستقلال بالفائدة التامة متقوم بالظهور التصاعدي لتلك الأطوار، وهذا يحتّم علينا قراءة المشهد بحلقاته المتّصلة، وقد أدى حرف العطف "الواو" دور الوسيط الرابط الذي يجمع أحداث الجعل والتقدير، ومن ثم فهو سمط كاشف عن مظاهر التدبير، ولأنّ الإنسان أعظم موجودات عالم الإمكان وثمرته الفعلية كان التمثيل بخلقه وإنشائه من الآيات الأنفسيّة التي تظهر بها الذات الإلهية جليّة بلا خفاء، يدركها

البدوي والقروي، وينفعل بها الحصيف العالم ولا يغفلها البليد الخامل، ومما قاله الطاهر بن عاشور في المقام : (هذا شروع في الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا يشاركه فيها غيره، وعلى أن الإنسان مربوب لله تعالى وحده، والاعتبار بما في خلق الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم النعمة. فالمقصود منه إبطال الشرك ؛ لأن ذلك الأصل الأصيل في ضلال المعرضين عن الدعوة المحمدية.)[٤٢]، وللطباطبائي التفاتة ظريفة ونكتة طريفة يفيدها من العدول إلى فعل الإنشاء، إذ يقول: (و قد غير السياق من الخلق إلى الإنشاء فقال: "ثم أنشأناه خلقا آخر" دون أن يقال: ثم خلقناه إلخ، للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه و لا يقارنه ما تقدمه من مادة فإن العلقة مثلا و إن خالفت النطفة في أوصافها و خواصها من لون و طعم و غير ذلك إلا أن في النطفة مكان كل من هذه الأوصاف و الخواص ما يجانسه و إن لم يماثله كالبياض مكان الحمرة و هما جميعا لون بخلاف ما أنشأه الله أخيرا و هو الإنسان الذي له حياة و علم و قدرة فإن ما له من جوهر الذات و هو الذي نحكي عنه بأنا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة و العلقة و المضغة و العظام المكسوة لحما شيء، و لا سبق فيها شيء يناظر ما له من الخواص و الأوصاف كالحياة و القدرة و العلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم.)[٤٣]، وهنا تُعطى المزيّة لمرحة الإنشاء من حيث إنها تمثل البعد الإنساني الذي له صفة التعقّل والفعل الإرادي، وفي تتميمه بالقول "فتبارك الله أحسن الخالقين"، ما يكشف عن الإتقان والإحكام وجليل التدبير.

- قال تعالى :(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) الأنبياء ٢٢.

:(قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) الإسراء٤٢.

:(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يَصِفُونَ)المؤمنون٩١.

:(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) يوسف ٣٩.

هذا الظهور له منزع واحد، ومسلك من الاستدلال رافد، تعنّ فيه التراكيب لتقرير مطلب ديني له خطره في بناء العقيدة، فقد بدت الجمل، وهي حاملة وظيفة التوحيد من زاوية ثبوتية باتّة لا سبيل إلى رفضها أو إنكارها، لأنّها تتوغل إلى الأذهان بساطع البرهان، وقد تفنن المنشئ في عرض صور التقديم، وهو يقيم الأدلّة، فتارة يتّخذ من أسلوب الشرط الافتراضي سبيلاً للمدّعى حتى إذا ما علّق الحكم على الفرض والادّعاء، بان التمنع وظهر الفساد.

في الجملة الأولى نظر المنشئ إلى حيثية استدلالية تقوم على نقل صورة لواقع محسوس مما يؤنس به في الحياة الطبيعية من الأمور الاعتبارية، وهو قيام الحكم بزعامتين أو تولي السيادة رئاستان، لما يشتمل عليه من التدافع والتنافس، وما يؤول إليه الحال من تعارض التدبير وفساد التقدير، فكان الردّ على المشركين في الآية من جهة التمانع والآثار المترتبة علية، ولمّا

كان الأثر المترتب على القول غير واقع، فإن الفرض ساقط والادّعاء باطل، وفي ذلك يقول الطاهر بن عاشور: (هذا استدلال على بطلان عقيدة المشركين ؛ إذ زعموا أن الله جعل آلهة شركاء له في تدبير الخلق، أي أنه بعد أن خلق السماوات والأرض [ص: ٣٩] أقام في الأرض شركاء له، ولذلك كانوا يقولون في التلبية في الحج : لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، وذلك من الضلال المضطرب الذي وضعه لهم أئمة الكفر بجهلهم وترويج ضلالهم على عقول الدهماء. وبذلك يتبين أن هذه الآية استدلال على استحالة وجود آلهة غير الله بعد خلق السماوات والأرض ؛ لأن المشركين لم يكونوا ينكرون أن الله خالق السماوات والأرض، قال تعالى : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله في سورة الزمر، وقال تعالى : ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم في سورة الزخرف. فهي مسوقة لإثبات الوحدانية لا لإثبات وجود الصانع ؛ إذ لا نزاع فيه عند المخاطبين، ولا لإثبات انفراده بالخلق ؛ إذ لا نزاع فيه كذلك، ولكنها منتظمة على ما يناسب اعتقادهم الباطل لكشف خطئهم وإعلان باطلهم.)[٤٤]، ولهذا النمط من البناء قيمته المعرفية في الاستدلال ؛ لأنّه يجري على وفق المقايسة بين الفرض والادّاء من جهة ومعاينة الواقع العيني من جهة أخرى، وقريب منه أسلوب الجملة الثانية، فهي واقعة في مقام التعليم لامتثال أسلوب الفرض في مجال الاستدلال، ولكنّ هذا الفرض يركّز على البعد الإجرائي، المتمثل بطموح القيادة وتولي أمر التدبير في صدور الأوامر العرشيّة، فكان التعلق بالفرض ناظراً إلى التفرد بالحاكمية والسعي إلى نيل مقام العرش وإبطال من كان فيه بالقهر والتنحي، وقد أهمل ذكر الآثار؛ لأنّها من بدهيات نتاج الشركة والتعدد، قال الطباطبائي في هذه الحجة : (انه لو كان معه آلهة كما يقولون وكان يمكن أن ينال غيره تعالى شيئا من ملكه الذي هو من لوازم ذاته الفياضة لكل شيء وحب الملك والسلطنة مغروز في كل موجود بالضرورة لطلب أولئك الالهة أن ينالوا ملكه فيعزلوه عن عرشه ويزدادوا ملكا على ملك لحبهم ذلك ضرورة لكن لا سبيل لاحد إليه تعالى عن ذلك.)[٤٥]، وقد فرق الطباطبائي بين الآيتين في قيام الحجة من المقدّمات والقرائن اللفظية، فقال: (فالحجة التي في الآية التي نحن فيها تسلك إلى نفى الشريك من جهة ابتغاء الالهة السبيل إلى ذي العرش وطلبهم الغلبة عليه بانتزاع الملك منه، والتي في آية الأنبياء تسلك من جهة أن اختلاف الالهة في ذواتهم يؤدى إلى اختلافهم في التدبير وذلك يؤدى إلى فساد النظام فالحق أن الحجة التي فيما نحن فيه غير الحجة التي في آية الأنبياء)[٤٦]، وللطاهر بن عاشور التفاتة جميلة، يرصد فيه تخلل جملة "كما تقولون" الاعتراضية للتنبيه على أن تعدد الآلهة لا تحقق له، وإنما هو مجرد قول عار عن المطابقة لما في نفس الأمر[٤٧]. والجملة الثالثة، وإن ابتدأت بالنفي وتعلقت بالأداة "ما"، يبقى الشرط الافتراضي هو النسق المهيمن، لكنّه في هذه الجملة مضمر، دلّ علية حرف الجواب "إذا" و"اللام"، وكأن الشرط المضمر وجوابه المعلن هو نتيجة لازمة للاحتجاج على نفي الاتّخاذ ووجود المعيّة، أو إنّه قائم مقام التعليل لجملة النفي. والتقدير: ما كان معه إله ؛ لأنّه يفضي إلى الانفراد والاستقلال في شؤون التدبير. يقول الطاهر بن عاشور: (أتبع الاستدلال على إثبات الوحدانية لله تعالى

بالاستدلال على انتفاء الشركاء له في الإلهية. وقدمت النتيجة على القياس لتجعل هي المطلوب، فإن النتيجة والمطلوب متحدان في المعنى مختلفان بالاعتبار، فهي باعتبار حصولها عقب القياس تسمى نتيجة، وباعتبار كونها دعوى مقام عليها الدليل وهو القياس تسمى مطلوبا كما في علم المنطق. ولتقديمها نكتة، أن هذا المطلوب واضح النهوض لا يفتقر إلى دليل إلا لزيادة الاطمئنان فقوله : { ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله } هو المطلوب وقوله : { إذا لذهب كل إله بما خلق } إلى آخر الآية هو الدليل. وتقديم هذا المطلوب على الدليل أغنى عن التصريح بالنتيجة عقب الدليل. وذكر نفي الولد استقصاء للرد على مختلف عقائد أهل الشرك من العرب فإن منهم من توهم أنه ارتقى عن عبادة الأصنام فعبدوا الملائكة وقالوا : هم بنات الله.

وإنما قدم نفي الولد على نفي الشريك مع أن أكثر المشركين عبدة أصنام لا عبدة الملائكة نظرا إلى أن شبهة عبدة الملائكة أقوى من شبهة عبدة الأصنام ؛ لأن الملائكة غير مشاهدين فليست دلائل الحدوث بادية عليهم كالأصنام، ولأن الذين زعموهم بنات الله أقرب للتمويه من الذين زعموا الحجارة شركاء لله.)[٤٨]، وهذا النحو من الاستدلال يحكي أمراً اعتبارياً قد ألفه الإنسان في مفهوم الحاكمية على أمور جزئية، فكيف بشؤون الوجود ومظاهره المختلفة، إذاً، لا شركة في إدارة العرش وسلطان الملك ؛ لأنّه يقود إلى التنافي والاستقلال، فكل إله يقود مملكته وينفرد بحاكميته، وهذا ينافي الوحدة التي تقتضيها الألوهية، ومن ثم يكون المصير في التعدد إلى الخراب واليباب، وقد ركّز الطباطبائي على حجتي الفساد في التعدد بقوله :(وقوله: " إذا لذهب كل إله بما خلق " حجة على نفي التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد في معنى ألوهيتها وربوبيتها، ومعنى ربوبية الآله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شئ غير نفسه حتى إلى من فوض إليه الامر، ومن البين أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمر أن متباينان.

ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير وتنقطع رابطة الاتحاد والاتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري في العالم الانساني عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها وكل منها عن كل منها، وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهن، ووحدة النظام الكوني والتئام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذبه.

وهذا هو المراد بقوله: " إذا لذهب كل إله بما خلق " أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يترشح منه من التدبير.

وقوله: " ولعلا بعضهم على بعض " محذور آخر لازم لتعدد الآلهة تتألف منه حجة أخرى على النفي، بيانه أن التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضية كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر والتدبيرين الجاريين في الماء والنار، ومنها التدابير الطولية التي تنقسم إلى تدبير

عام كلي حاكم وتدبير خاص جزئي محكوم كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية.)[٤٩].

أمّا الجملة الأخيرة من هذا المنحى الاستدلالي فنجد أنّ الحجّة قد جرت على لسان النبي يوسف عليه السلام، وهو يخاطب صاحبي السجن بأسلوب النداء الذي يحمل معنى التودد والتلطف، معتمداً على بنية الاستفهام و "أم" المعادلة التي تجعل مسار التوجّه منقسماً على مطلبين في تحرير الإجابة، وكان لاسم التفضيل "خير" دور مهم في رصد مراتب التفضيل التي تجبر المتلقي على إيثار أحدهما، وهنا يتآزر التفضيل مع التخيير في ابتغاء إحدى جهتي المعادلة، لتقرير المطلب في إقامة الحجة على الخصم وبلوغ الإيقان، وقد رافق طرفي التعادل في بناء الأسلوب البرهاني توزيع المفاهيم وصفاتها، فكان التعدد في الطرف الأوّل ظاهراً بجمع القلّة أفعال(أرباب)، مقروناً بصفة التعدد، في حين قابله الطرف الآخر المتمثل بالله، وقد اقترنت معه صفتا الوحدة والقهّاريّة، فالوحدة في مقابل الكثرة، والتعدد والضعف في مقابل القهّاريّة، ولا ريب أنّ تدبير الربوبية يقوم بالوحدة والقاهرية، وللاستفهام دور في الإقرار ؛ لأنّ يتطلب الإجابة، ولا تكون الإجابة بعيدة مما فُطرا عليه، يقول سيد قطب:(إن الذي يستحق أن يكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هو الله الواحد القهار. ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر في الوجود فيجب تبعا لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر في حياة الناس. وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحد، وأنه هو القاهر، ثم يدينوا لغيره ويخضعوا لأمره، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا.. إن الرب لا بد أن يكون إلها يملك أمر هذا الكون ويسيره. ولا ينبغي أن يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره!)[٥٠]، وهذا النحو من الأسلوب فيه رائحة الفرض ولكن من غير جهة الفرض بالأداة "لو"، لأنّ التقرب إلى النفوس في إلقاء الحجة وتحصيل الاقتناع عند من لا يؤمن بدين التوحيد به حاجة إلى التدرج مما رسخ في أذهانهم من تصورات والأوهام إلى ما عليه الواقع الحقّ، يقو الطاهر بن عاشور: (أَرَادَ بِالْكَلَامِ الَّذِي كَلَّمَهُمَا بِهِ تَقْرِيرَهُمَا بِإِبْطَالِ دِينِهِمَا، فَالِاسْتِفْهَامُ تَقْرِيرِيٌّ. وَقَدْ رَتَّبَ لَهُمَا الِاسْتِدْلَالُ بِوَجْهٍ خِطَابِيٍّ قَرِيبٍ مِنْ أَفْهَامِ الْعَامَّةِ، إِذْ فَرَضَ لَهُمَا إِلَهًا وَاحِدًا مستفردا بِالْإِلَهِيَّةِ كَمَا هُوَ حَالُ مِلَّتِهِ الَّتِي أَخْبَرَهُمْ بِهَا. وَفَرَضَ لَهُمَا آلِهَةً مُتَفَرِّقِينَ كُلُّ إِلَهٍ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَتَصَرَّفُ فِي أَشْيَاءٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ لَا يَعْدُوهَا إِلَى مَا هُوَ مِنْ نِطَاقِ سُلْطَانِ غَيْرِهِ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ حَالُ مِلَّةِ الْقِبْطِ. ثُمَّ فَرَضَ لَهُمَا مُفَاضَلَةً بَيْنَ مَجْمُوعِ الْحَالَيْنِ حَالِ الْإِلَهِ الْمُنْفَرِدِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَالْأَحْوَالِ الْمُتَفَرِّقَةِ لِلْآلِهَةِ الْمُتَعَدِّدِينَ لِيَصِلَ بِذَلِكَ إِلَى إِقْنَاعِهِمَا بِأَنَّ حَالَ الْمُنْفَرِدِ بِالْإِلَهِيَّةِ أَعْظَمُ وَأَغْنَى، فَيَرْجِعَانِ عَنِ اعْتِقَادِ تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ. وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ وُجُودَ الْحَالَيْنِ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ أَصْحَابِ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ.)[٥١].

وآثار الشركة والتعدد غير ظاهرة في هذه الجملة، ولكنّها مطوية في التركيب يفهمها المتلقي ويدركها عقلاً ويشعر بها وجداناً، وهو في مقام الإجابة يختار أحد الطرفين، ولا ريب أنّ التعدد

والتفرقة في التدبير تحيل على الوهن والاختلال.

والجمل المتقدمة جميعها مؤلّفة من جمل قصيرة بسيطة، ولكنّها تتكاثر في مفرداتها، ولا تمتد في ترابطها لتأليف جمل طويلة كبيرة، والسرّ في ذلك هو أن الفرض في القضايا المحورية العقدية غالباً ما يُبنى على طرفين موجزين تتكاثف فيهما المعاني دون الألفاظ، تُقدّم الفرضية، ويُذكر معها ما يترتّب عليها، وتكون الآثار إمّا ظاهرة للعيان، وإمّا مطويّة يتلمسها الوجدان. والأثر الذي يقدّمه هذا النحو من الجمل أبلغ في نهج سبيل الاقناع، بحكم فاعليته الحجاجية، ونتيجته البرهانيّة، لأنّ المتلقي معها يبقى بين خيارين، لا ثالث لهما، إمّا الجحود النفسي وإمّا الإذعان العقلي، وهذا ما تبتغيه الجمل في مقصديتها.

- قال تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(١) اللَّهُ الصَّمَدُ(٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(٤)) الإخلاص

تمثّل هذه السورة جملة كاملة، ترابطت فقراتها، وامتزجت مقاصدها لتحرير مطلب عقدي، كثر فيه السجال والخصام على طول الحياة الإنسانية، فبدأت بفعل القول الإلزامي ليعطي لهذا المحور منزلة سامية في حياة البشرية، والإلزامية المتقدّمة من مقولة التأمل وسنخ التفكير، لذلك امتثال القول هذا لا ينبئ عن خضوع قهري يؤديه العبد بلا حرّية، ويُجريه بغير إرادة ؛ ومن يقف على ألفاظه المؤتلفة تتدفق إليه المعاني التصوّريّة، وتهجم عليه المطالب العقلية، فقد بنيت الجملة من عنصر رئيس، مثّله ضمير الشأن ولفظ الجلالة وما يحيل عليه في التركيب، وعناصر أخرى تُسند إليه، تعمل على تعريف الذات، وتحديد هويّتها. بدأ التعريف بمفهوم الأحدية، ذلك المفهوم الذي يعني التفرّد والاستقلال في الكينونة، وهو في الافتتاح لا يراد به نفي الشريك ؛ فنفي الشريك مرتبة متأخرة من وجوده البسيط الذي لا كثرة في ذاته، فهو بسيط لا يقبل التجزؤ حتّى في تفرّده، فهذه الجملة الصغيرة تحرر مفهوم الوحدة التي لا تقبل التجزيئ، وفي الجملة التي تليها يستطيل المعنى وتتفرّع شجونه، فيكون المسند معرّفاً الذات من جهة الغنى، وهذا ما يُعطيه لفظ الصمد الذي يعني كون الشيء على نحو من الكمال ما يؤهله أن يكون مقصوداً، ومطلوباً على الدوام، قال الراغب : (الصَّمَدُ: السَّيِّدُ: الذي يُصْمَدُ إليه في الأمر، و صَمَدَهُ: قصد معتمدا عليه قصده، و قيل: الصَّمَدُ الذي ليس بأجوف)[٥٢]، والارتباط بينهما بيّنٌ بذاته ؛ لأنّ البسيط الذي لا كثرة فيه يعني قيامه بذاته، وفي هذا معنى الغنى. ومن كان كاملا غنيّا أصبح موراً للعطاء ومصدرا للثناء، فهو يعطي ويفيض النعم...

إذا، العلاقة بين الفقرتين هي علاقة تلازميّة، تفضي إحداهما إلى الأخرى. وهذا برأيي يُعدّ مقطعاً يكشف جهة الشأن الذاتي، ولم يُستعمل النفي في هذا المقطع لدفع الشركة، وفي ذلك يقول الطباطبائي :(فاستعمال لفظ أحد في قوله: " هو الله أحد " في الاثبات من غير نفى ولا تقييد بإضافة أو وصف يفيد أن هويته تعالى بحيث يدفع فرض من يماثله في هويته بوجه سواء كان واحدا أو كثيرا فهو محال بحسب الفرض الصحيح مع قطع النظر عن حاله بحسب الخارج.)[٥٣] .

ومن ثمّ يأتي دور المقطع الآخر الذي تظهره الجمل الصغيرة الثلاث، وهي منفيّة بحرف النفي

"لم" الداخل على الفعل ؛ ليدلّ على نفي الشأنيّة، فليس من شأن الذات أن تلد أو تُولد، أو يكون لها شريك، وهذه الجمل تقابل المقطع الأوّل من حيث الدلالة على الوحدة، ولكنّ السياق يصرفه إلى الوحدة العدديّة، فالحديث فيها ينصرف إلى نفي الشركة في الوجود، فوحدة الذات منظور إليها من جهة التعدّد لا من جهة البساطة، ويقترن كلا المقطعين لتأدية التوحيد على المستوى البساطة وعدم الشريك، وهذا أبلغ ما يصل إليه مفهوم التوحيد، يقول الكفوي : (وَالْوَاحد لَهَا مَعْنيانِ: أَحدهمَا: مَا قَامَت بِهِ الْوحدَة وَهُوَ كَون الشَّيْء بِحَيْثُ لَا يَنْقَسِم إِلَى أُمُور متشاركة فِي الْمَاهِيّة، ويقابلها الْكَثْرَة، فالواحد بِهَذَا الْمَعْنى لَا يَنْقَسِم وَلَا يتَجَزَّأ، وَهُوَ الْوَاحِد الْحَقِيقِيّ، وَلَا يُوصف بِهِ إِلَّا الْبَسِيط فِي أحد معنييه كالجوهر الْفَرد عِنْد الأشعرية والنقطة عِنْد المهندسين والجوهر المفارق عِنْد الْحُكَمَاء.

وَالثَّانِي: مَا لَا نَظِير لَهُ فِي ذَاته وَلَا شَبيه لَهُ فِي أَفعاله وَصِفَاته. وَلَيْسَ فِي الْوُجُود من يَتَّصِف بالمعنيين حَقِيقَة سوى الله تَعَالَى لِأَن مَا لَا يتَجَزَّأ من الموجودات كالجوهر الْفَرد يَنْضَم إِلَى مثله وَأَمْثَاله، وَمَا لَا نَظِير لَهُ مِنْهَا كالعرش والكرسي.)[٥٤]، وقد قُرئت سورة الإخلاص من هذين التوحيدين استناداً إلى ما يفرزه السياق وتعطيه القرائن اللفظية، فالأحدية في صدر الكلام تنفي التركيب، وقد قُرن معه مفهوم الصمد للدلالة على كماله من جهة البساطة. والثانية تنفي النظير بديل ذكر الكفؤ، لذلك قيل: " الكفؤ ": هو الكفء في المقام والمنزلة والقدر. ثم أطلقت الكلمة على كل شبيه ومثيل. استنادا إلى هذه الآية، الله سبحانه منزه عن عوارض المخلوقين وصفات الموجودات وكل نقص ومحدودية. وهذا هو التوحيد الذاتي والصفاتي، مقابل التوحيد العددي والنوعي الذي جاء في بداية تفسير هذه السورة)[٥٥]، والتوحيد في هذه الجملة يمثّل المقام الأتمّ لظهور الذات الإلهية. وهي الجملة الوحيدة من بين هذه الجمل ذكرت التوحيد بلحاظ الذات والوحدة غير العددية، تلك الوحدة التي لا تقبل التجزئة والتركيب.

وفي القرآن جمل كثيرة ظهرت بوظيفة عقدية تنزّه الذات عن كلّ ما لا يليق بها، وفي ذكرها يطول المقام.

الهوامش

١ - الخصائص: ٦٩.
٢ - شرح المفصّل: ١/ ٤٦. ظاهر كلام الشارح أنّه على رأي ابن جنّي لكنّه في التمثيل وتتمّة الكلام يوافق الزمخشري الذي سيأتي قوله.
٣ - شرح الألفيّة : ٢٨/١.
٤ - من أسرار اللغة : ٢٦٠- ٢٦١.
٥ - اللغة : ١٠١، وينظر: دراسات نقدية في النحو العربي: ١٥٨- ١٥٩.
٦ - الكتاب : ٢٣/١.
٧ - شرح الرضي على كافية ابن الحاجب: ١٩/١.
٨ - مغني اللبيب : ٢/ ٣٧٤، وينظر شرح الإعراب عن قواعد الإعراب : ٥٢- ٥٥، والتذييل والتكميل: ٣٥/١.
٩ - شرح التسهيل : ٥/١- ٨.
١٠ - التعريفات: ٥٧.
١١ - ينظر: شرح الحدود النحوية : ١١٠.
١٢ - السابق نفسه : ٥٣- ٥٤.
١٣ - ينظر : الكلّيّات : ٢٨٤.
١٤ - المسائل العسكريات :
١٥ كتاب الحدود في النحو في ضمن رسائل في النحو واللغة: ٣٩.
١٦ - المفصّل : ٤٩، وينظر: شرح الأنموذج في النحو: ٤١- ٤٣.
١٧ - ينظر : المرتجل: ٥، ٢٧- ٢٩.
١٨ - التخمير: ١/ ٤٨- ٤٩.
١٩ - ينظر : شرح المفصّل :٤٦- ٤٧.
٢٠- المغني : ٧٣/١.
٢١ - شرح المغني : ٩٥- ٩٧.
٢٢ - شرح الإعراب عن قواعد الإعراب : ٥٤.
٢٣ - تمهيد القواعد : ١/ ١٤٢ ــ ١٥٠.
٢٤ - البحث النحوي عند الأصوليين : ٢٤٤.
٢٥ - ينظر: السابق نفسه : ٢٤٤- ٢٤٧.
٢٦ - ينظر: مغني اللبيب : ٣٨٠/٢.
٢٧٢٧ - دراسات أدبيّة لنصوص من القرآن : ١٤٠.
٢٨ - ينظر : السابق نفسه : ١٤٠- ١٤٦.
٢٩ - دلالات التراكيب دراسة بلاغيّة : ٢٨٦.
٣٠ - مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة: ١٨١- ١٨٢.
٣١ - قراءات في النظم القرآني : ١٣٠.
٣٢ - ينظر : السابق نفسه : ١٣١- ١٣٧.
٣٣ - ينظر : لسان العرب: ١٥/ ٢٦٠- ٢٦٢.
٣٤ - التعريفات: ٥١.
٣٥ - الكلّيّات : ٧٨٤.
٣٦ - التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٩٨.
٣٧ - الميزان : ١٦/ ١٥٣.
٣٨ - الميزان ٢٠/ ١٧٦- ١٧٧.
٣٩ - في ظلال القرآن: ٦/ ٣٨٠٦. ، وينظر : المعاني الثانية : ١٤٥- ١٤٦.
٤٠ - الميزان : ١٩/ ٤٩، وينظر: الأمثل: ١٧/ ١٩٨.
٤١ - في ظلال القرآن : ٤/ ٢١٥٨.
٤٢ - التحرير والتنوير: ١٨/ ١٨- ١٩.
٤٣ - الميزان : ١٥/ ٢٠- ٢١.
٤٤ - التحرير والتنوير: ١٧/ ٢٩- ٣٠.
٤٥ - الميزان : ١٣/ ١٠٤.

٤٦ ـ السابق نفسه : ١٣/ ١٠٤ـ ١٠٥.
٤٧ ـ التحرير والتنوير: ١٤/ ٨٨ـ ٨٩.
٤٨ ـ السابق نفسه: ١٨/ ٩٢ـ ٩٣.
٤٩ ـ الميزان : ١٥/ ٦٢.
٥٠ ـ في ظلال القرآن : ٤/ ١٩٨٩.
٥١ ـ التحرير والتنوير: ١٢/ ٦٤.
٥٢ ـ مفردات ألفاظ القرآن : ٤٩٢، وينظر: عمدة الحفّاظ : ٢/ ٤٠٩.
٥٣ ـ الميزان :٦/ ٩٠.
٥٤ ـ الكلّيّات : ٧٨٤.
٥٥ ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٠/ ٤٣١.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي– بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.
- البحث النحوي عند الأصوليين، الدكتور مصطفى جمال الدين، دار الرشيد للنشر – بغداد ١٩٨٠م.
- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- التخمير وهو شرح المفصّل في صنعة الإعراب، القاسم بن الحسين بن أحمد الفراهيدي، تحقيق محمّد السيّد عثمان، دار الكتب العلميّة- بيروت، ط١، ٢٠١١م.
- التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، ألّفه أبو حيّان الأندلسي، حققه الدكتور حسن هنداوي، دار القلم – دمشق، ط١، ١٩٩٧م.
- التعريفات، الشريف الجرجاني ، دار الفكر – بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٥م .
- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد لناظر الجيش، دراسة وتحقيق مجموعة من الأساتذة، دار السلام- القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- الخصائص لابن جنّي، تحقيق الدكتور محمّد عليّ النجّار، عالم الكتب – بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
- دراسات أدبية لنصوص من القرآن محمّد المبارك، دار الفكر، ط٤، ١٩٧٣م.
- دلالات التراكيب دراسة بلاغيّة، الدكتور محمّد محمّد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط٤، ٢٠٠٨م.
- شرح الإعراب عن قواعد الإعراب، لأبي عبد الله الكافيجي، تحقيق أحمد عزو عناية وعليّ محمّد مصطفى، دار إحيلء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠١٢م.
- شرح الألفية، الحسن بن القاسم المرادي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر– بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- شرح الأنموذج في النحو، محمّد بن عبد الغني الأربلي، دار الكتب العلميّة- بيروت، ط١، ٢٠١ذ٣م.
- شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق الدكتور عبد الرحمن السيّد والدكتور محمّد بدوي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
- شرح الحدود النحويّة، جمال الدين عبد الله ابن أحمد ابن علي ابن محمّد الفاكهي، حققه وقدّمه الدكتور محمّد الطيّب إبراهيم، دار النفائس، ط١، ١٩٩٦م.
- شرح المغني في النحو، بدر الدين محمّد بن عبد الرحيم الميلاني، دراسة وتحقيق الدكتور قاسم خليل إبراهيم الأوسي، مركز البحوث والدراسات الإسلاميّة – بغداد، ط١، ٢٠١١م.
- شرح المفصّل، موفقّ الدين يعيش بن عليّ بن يعيش النحويّ، تحقيق الدكتور إبراهيم محمد عبد الله ، دار سعد الدين – دمشق ، ط١ ، ٢٠١٣م.

- عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي، تحقيق الدكتور محمّد التونجي، عالم الكتب- بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- في ظلال القرآن سيّد قطب، دار الشروق- بيروت.
- قراءات في النظم القرآني الدكتور عبد الواحد زيارة، دار الفيحاء- البصرة، ط٢.
- الكتاب أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.
- الكلّيّات، لابي البقاء أيّوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، تحقيق د عدنان درويش ومحمّد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٢، ٢٠١١م.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية القاهرة.
- مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة الدكتور محمود أحمد نحلة، دار النهضة العربيّة- بيروت، ١٩٨٨م.
- المرتجل لابن الخشّاب، تحقيق علي حيدر، منشورات دار الحكمة- دمشق، ١٩٧٢م.
- المسائل العسكريات لأبي علي الفارسي، تحقيق أحمد عمايرة، الأردن .
- المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، الدكتور فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف – الاسكندريّة، ط١، ١٩٧٧م.
- المغني في النحو لابن فلاح اليمني، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الرزّاق عبد الرحمن أسعد السعدي، المكتبة الوطنيّة – بغداد، ط١، ١٩٩٩م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة المدني – القاهرة.
- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي، مطبعة أميران- قم، ط٣، ١٤٢٤ه.
- المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم الزمخشري محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي، تحقيق ودراسة الدكتور خالد إسماعيل حسّان رجعه الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الآداب القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.
- من أسرار اللغة د إبراهيم أنيس، مطبعة الأنجلو المصريّة – القاهرة، ط٣، ١٩٦٦م.
- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي– بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.